

الحوار.. تنمية القناعات والمساحات المشتركة



«يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ، أَنَّ الْحَوَارِ يَسْتَهْدِفُ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْقَوَاسِمِ الْمَشْتَرَكَةِ، وَيَسْعَى عِبْرَ آيَاتِهِ وَأُطْرِهِ إِلَى تَنْمِيَةِ الْمَسَاحَاتِ الْمَشْتَرَكَةِ وَالْعَمَلِ عَلَى تَفْعِيلِهَا. قَالَ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران/ 64). فَالْحَوَارِ لَا يَسْتَهْدِفُ بِالدرْجَةِ الْأُولَى إِقْنَاعَ الْآخَرِينَ بِقَنَاعَاتِ الذَّاتِ، وَإِنَّمَا تَعْرِيفُهَا إِلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ. وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ حَوَارٌ لَا يَسْتَهْدِفُ الْإِقْنَاعَ وَالْقَطِيعَةَ، وَإِنَّمَا التَّوَاصُلَ وَالتَّعَايُشَ. فَ"الْإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى التَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ الْقِيُودِ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْإِنْتِقَالِ فِي خَطِّ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ يَدْعُو أَيْضًا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ يَتِمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ حِينَئِذَا يَقْدِرُ عَلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَمَجْتَمَعِهِ عَلَى ضَوْءِ التَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ مِنْ خِلَالِ الْإِتِمَامِ بِهِ".

وَيَنْهَى الْقُرْآنُ أَيْضًا عَنِ الْمَرَاءِ وَالْجِدَالِ الَّذِي لَا يُفْضِي إِلَى نَتِيجَةٍ، بَلْ قَدْ يَزْعِزُ الْمَشْتَرَكَاتِ، وَيُوجِدُ مَنَاحَاً نَفْسِيًّا يَحُولُ دُونَ تَنْمِيَةِ الْقَوَاسِمِ الْمَشْتَرَكَةِ. قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شُرُوعًا لِمَنْ هُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّهُمْ أُمُوتُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَذِرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام/ 159).

وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغَيْبٍ بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَيْنَا لَقَضَيْنَا بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (الشورى/ 14).

إِنَّنَا مُطَالِبُونَ جَمِيعاً، أَنْ نَمَارِسَ فَاعِلِيَّتَنَا الْفِكْرِيَّةَ وَحَيَوِيَّتَنَا الثَّقَافِيَّةَ، لِتَوْطِيدِ أَرْكَانِ وَعَوَامِلِ الْمَنْهَجِ الْحَوَارِيِّ، حَتَّى نَكُونَ جَمِيعاً بِمَسْتَوَى الْمَشَارَكَةِ النَّوْعِيَّةِ بِصَنْعِ حَقَائِقِنَا، وَصِيَاغَةِ رَاهِنِنَا، وَإِنْجَاحِ خِيَارَاتِ غَدِنَا وَمُسْتَقْبَلِنَا.

وَكَمَا يَقُولُ أَحَدُ الْمَفْكِّرِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ: إِنَّ الْحَوَارِ بِحَاجَةٍ إِلَى ثِقَافَةٍ وَفِكْرٍ يَحْتَرِمَانِ الْفُرُوقَ وَالتَّنَوُّعَ، وَيَرَى أَنَّ الْحَقَائِقَ الْمَجْتَمَعِيَّةَ مَا هِيَاتِ مَرْكَبَةُ ذَاتِ وَجْهِ وَأَبْعَادٍ لَا جَوَاهِرَ بِسِطَّةٍ مُطْلَقَةٍ ذَاتِ بَعْدٍ وَاحِدٍ.

إنّهُ فكر يجيد التبادل والتأليف انطلاقاً من توسُّط مشرف من غير أن يجنح إلى دمج كـ"لاني يُلغى المسافات والتخوم، أو يقع في تفرعية انقسامية تقطع العلائق وتعدم التواصل.

ولقد أظهرت وقائع الحروب والمنازعات أنّ التصادم داخل الجماعة البشرية الواحدة، كان أشد فتكاً من تصادم الجماعات البشرية المختلفة. وما يجري من قتل وقطاعات وتدمير أعمى في الجزائر وأفغانستان وبعض دول القرن الأفريقي، يؤكد هذه الحقيقة، ويجعلنا نجزم أنّ ضحايا الحروب الداخلية والاقتتال الأهلي، أكثر فطاعة وتدميراً من كلّ الحروب الخارجية التي خاضتها البلدان العربية والإسلامية.

وأوضح عبدالمنعم سعيد هذه الحقيقة بالأرقام، وقال: إنّ الصراع مع إسرائيل كلف في العقود الخمسة الماضية حوالي 200 ألف من الضحايا، ولكن الصراعات الأهلية والحروب الداخلية بين البلدان العربية والإسلامية كلفت 2.5 مليون ضحية، ومن حيث التكلفة المالية، فإنّ الصراع الأوّل كلفت الدول العربية حوالي 300 بليون دولار، أما باقي الصراعات فبلغت تكاليفها حوالي 1.2 تريليون دولار.

وهكذا نجد أنّ 80 في المئة من الحروب والصراعات والنزاعات تقع تحت عنوان الحروب الداخلية التي تتنازع فيها القوى المختلفة حول السلطة والثروة والنفوذ.

ويشير أحد المفكرين إلى هذه الحقيقة بالقول: ولا تزال الحياة تحتضن الحوار، وترزح في الوقت نفسه تحت ثقل الأساليب العنيفة التي تريد أن تخنق الحار بالجو الخانق الذي تصنعه، وبالقوة المادّية الغاشمة التي تحشدها، وبالعقليات الضيّقة التي تربّيها، ويقف الحوار أمام القوة كما وقف الأنبياء ليعلموا القوة أنّها لا تستطيع أن تبني الحياة التي تصنعها إلّا من خلال الحوار. لأنّ القوة التي تفقد ذلك سوف تدمر نفسها في نهاية المطاف. لأنّها لا تجد أمامها إلّا الحجارة التي ترحم حجارة، من دون هدف أو معنى. إنّ الحوار يعطي القوة المضمون الذي تتحرك من خلاله، والهدف الذي تسعى إليه والروح التي تعيش فيها.

لهذا فإنّ الحوار الثقافي والتواصل الإنساني، ينبغي ألا يتوقّف عند الأحكام الفاطعة والكاسحة، التي هي صدى أنّ انعكاس لحقبة التصنيفات الأيديولوجية، وبذور الحوار والتلاقي الذي يقمع بالإدانات والتهويش والتخوين، وقد كلفت هذه المرحلة العالم العربي والإسلامي الكثير من الضحايا والجهود والإمكانات.

يقتضي الحوار في الحقل الثقافي والإنساني العمل على مستويين في آن واحد، مستوى الذات والعمل على التخلص من روااسب لغة النفي والإقصاء والتخزين وكلّ المفردات التي تلغي المختلف والمغاير، ولا تسمح بأي شكل من الأشكال بأي مستوى من الحوار معه.

لذلك فإنّ تنظيف النفس والعقل من كلّ المفردات والمنطق السائد في تلك الحقبة التاريخية، يعدّ من الأعمال الجوهرية التي يجب أن نتوجّه إليها وتكون لدينا الشجاعة الكافية، لإعلان نهايتها ودخولنا في حقبة تاريخية جديدة تشجع الحوار وتؤسس للتسامح وتؤصل الحرّية لرأي الآخر.

ومستوى الواقع الذي يجب أن يسوده الحوار ونتدرّب فيه على احترام التنوّع وإدارة الاختلاف بعقلية حضارية مُنفتحة وبعيدة كلّ البُعد عن التعصّب المقيت الذي لا يفضي إلّا إلى المزيد من الحروب والاقتتال الداخلي.

يتحوّل الحوار الثقافي الذي يخرج من هذا السياق أو النطاق إلى حوار طرشان، لا يفضي إلّا إلى المزيد من التعصّب للرأي وسيادة عقلية الخصم والإفحام، وهي العقلية التي تدفع بشكل جنوني إلى خيارات عنيفة، تدمّر الجميع، وتحيل الأوطان إلى أرض خربة تعشش فيها الغربان والحيوانات المفترسة.►

المصدر: كتاب حوار الأديان وقضايا الحرية والمشاركة

